25 يناير...

صوت الحرية راب وطنبورة

الانطلاقة الحقيقيّة للأغنية السياسيّة الجديدة جاءت مع الرابر رامي دنجوان الذي قدّم «ضد الحكومة» قبل أيام من اندلاع الثورة المصرية ... وكرّت بعدها سبحة الأعمال الثورية

رامي عصام

عمان ـ **أحمد الزعتري**

يعتقد المنظّر الألماني الراحل ثيودور أدورنو أنّ دخول الموسيقى الشعبيّة على خطّ المقاومة السياسيّة أمر لا يحتمل، إذ «لا يمكن فصل هذه الأغنيات عن مزاجها الاستهلاكيّ الذي يدغدغ المشاعر بسطحيّة حتى لو لبست ثوب الحداثة». لكن، هل يمكن اعتبار الموسيقى السياسيّة حالةً شعبيّة؟ وكيف نقيس تأثير أغنياتها على الوعي الجمعي؟ والسؤال الأبرز: أيهما أهمّ في هذه المعادلة: جودة المنتج التي غالباً ما تتم التضحية بها، أم القضيّة التي تحاول هذه الأغنيّة الانتصار لها؟

عادت هذه الأسئلة مع الكم الهائل من الأغنيات الثوريّة المصريّة التي سمعناها على مدى عام من عمر انتفاضة النيل. لا يمكن بالمطلق الحديث عن أغنية سياسيّة مصريّة من دون استعادة دور الشيخ إمام في مقاومة الاستبداد السياسيّ. لكنّ الفرق بين تلقي الشيخ إمام كموسيقيّ وبين تلقيه كحالة ثقافيّة شاسع جداً. ولا يمكن الحديث عن موسيقى الشيخ إمام وإغفال قصائد أحمد فؤاد نجم. ولا يمكن استعادتهما معاً من دون الحديث عن مزاجه الفوضويّ وسخريته الحادّة، وطريقة انتشار أغنياته في السبعينيّات والثمانينيّات بين الطبقات النخبويّة، حتى وصلت متأخرةً إلى المستوى الشعبي في بداية القرن الحادي والعشرين.

ترافقت استعادة الشيخ إمام مع انفجار الأغنية السياسيّة المصريّة. تسرّبت هذه الأغنيات من الأفلام أولاً مع أغنية «مش باقي مني» في فيلم خالد يوسف «دكان شحاتة» (2009). كانت الأغنية «خبطة» بسبب صدورها أثناء أزمة الخبز، والشعور العارم الذي خلّفته بالذلّ ومحاربة لقمة العيش. أما الانطلاقة الحقيقيّة للموسيقى السياسيّة الجديدة، فجاءت مع قيام الرابر رامي دنجوان بتقديم أغنية «ضد الحكومة» قبل أيام من «ثورة 25 يناير». وقبل ذلك، كانت فرقة الشارع «اسكندريلا» بقيادة حازم شاهين قد بدأت مشوارها عام 2000 بتأثير محدود. أما أثناء الأيام الثمانية عشر، فقد ارتجلت الثورة

> **أمير عيد ورامي عصام وحمزة نمرة وحازم شاهين ومصطفى سعيد و«اسكندريلا» ومريم صالح**

مئات الحالات الموسيقيّة. هكذا ظهر رامي عصام، وحمزة نمرة، وترسّخ تأثير حازم شاهين ومصطفى سعيد، إضافة إلى الحلقات المرتجلة في ميدان التحرير التي استنسخت عشرات المؤدين الشعبيين.

لكن إذا كان لا بد من اختيار أغنية واحدة كصوت للثورة، فيجب أن تكون «صوت الحريّة» لأمير عيد التي صدرت قبل يوم واحد من تنحّي مبارك، إضافة إلى «حياة الميدان» لـ«مشروع كورال» الذي استفاد من زخم نجاح الثورة في إطاحة حسني مبارك. في تلك الأغنية، تظهر الموسيقيّة مريم (صالح) التي حققت حضورها في استعادة أغاني الشيخ إمام أيضاً، وهي تغنّي: «علّمونا في المدارس، جيشنا المصري هو الحارس» لتكتشف لاحقاً أنه ليس دقيقاً، فتغنّي «بعد طرحك مالحساب، للعساكر والكلاب». هكذا تحوّلت الأغنية المصريّة السياسيّة إلى هدف آخر: المجلس العسكري. رمز هذه الفترة اللاحقة كان فرقة «اسكندريلا» التي شاركت في الاعتصامات والميادين، وقدّمت أغنيات طبخت على استعجال، لتحيّي الثوّار في أماكنهم.

هكذا أيضاً، برزت موجة «الراب» لتأخذ مكانها الطبيعيّ والأكثر مباشرة. عاد رامي دنجوان بأغنية «رسالة إلى المشير طنطاوي»، وأصدر محمد أسامة عدداً كبيراً من الأغنيات في وقت قصير، أبرزها «امسك فلول» و«مفيش رجوع»، وبرز علي طالباب بكلماته الشعريّة العالية.

وكالعادة، امتدّت الثورة إلى الموسيقى التجاريّة، ليغني علي الحجّار «ضحكة المساجين» من قصيدة لعبد الرحمن الأبنودي. واستعادت الثورة صوت عايدة الأيوبي التي قدّمت مع فرقة «كايروكي» أغنية «في الميدان» بكلمات ركيكة، إضافة إلى عشرات الأغاني التي نبتت كالفطر هنا وهناك.

وبينما وجد موسيقيو الموسيقى البديلة أنفسهم خارج هذه المعادلة، استعادت الفنون الفولكلوريّة دورها كابنة التعبير الشعبي الجمعي. نزل الشيخ أحمد التوني وغنّى في ميدان التحرير، وقدّمت فرقة «الطنبورة» السويسيّة أغنية «شلنا الراس ولسّا الديل»، حتى جاء الفلسطينيّ المقيم في القاهرة تامر أبو غزالة ليقدّم انطباعه الخاص عن الأغنية الشعبيّة في أغنية «مهرجان البلاعات» التي تحمل أبعاداً سياسيّة أيضاً.

وباستعادة القضايا التي طرحها

عن بائعة الجرجير التي أطلقت الشعار الأول

القاهرة ــ **رضوان آدم**

أجهزت أم محمود على أصحاب الشعارات السياسية في مصر قبل 25 يناير 2011. بائعة الجرجير والبصل في شارع ناهيا (حي بولاق الدكرور الشعبي)، صرخت في وجه نشطاء اليسار الذين سّيروا أولى تظاهرات الثورة المصرية عند الحادية عشرة صباحاً. مرّ الثوّار أمام قفصها الخشبي، فأوقفتهم. رفعت رغيفاً من الخبز. «قولوا عيش. قولوا حرية يا أولاد مصر العربية». لا تملك المرأة الفقيرة ما تخاف عليه. نادت كل البائعات في السوق الشعبي. لم يسألنها شيئاً. انطلقن وراءها، وتقدّمت هي تظاهرة الشباب رافعة رغيفاً في يد، ومطلقة بالأخرى هتاف الثورة الأوّل: «عيش. حرية. كرامة إنسانية».

في الثانية عشرة ظهراً، انضمّ عشرات الآلاف من المواطنين إلى المسيرة الحاشدة. كان طرفها الأوّل يبدأ عند قفص أم محمود، ويصل طرفها الآخر إلى كوبري قصر النيل المقابل لميدان التحرير. راحوا يرددون: «الحرية لشعب مصر»، «يسقط حسني مبارك»، «عيش. حرية. كرامة إنسانية». وتوالت الحشود إلى الميدان من كل أطراف القاهرة، في وقت كانت فيه مسيرات السويس تردّد: « أنا مُش جبان. أنا نازل ميت في الميدان».

الواحدة ظهراً، وصل مئات الآلاف إلى «ميدان التحرير». منشدو الهتافات السياسية والاجتماعية من المناضلين ضد التوريث قبل «25 يناير»، وصلوا الميدان على رأس مسيرات، هاتفين: «قول يا مبارك يا مفلّسنا إنت بتعمل إيه بفلوسنا»، و«ارحل، ارحل زي التونسي يطرب الوجدان. تراجعت كل الهتافات، وصعد هذا الهتاف وحده. انتقل كتوابع زلزال عبر رسائل الخلوي إلى البقاع المنتفضة في السويس، والإسكندرية، والمحلة الكبرى.

من دون سقف، صاغ الشباب الغاضب هتافاته. ارتجلها، وكتبها على الأكف كي لا ينساها. معظم الهتافات الجديدة كان تطويراً لهتافات قديمة. يقول جاسر، أحد شباب الألتراس، «كنّا ندخل على الإنترنت، ونبحث عن شعارات قديمة، ونغيّر في الأسماء، ونضيف إليها توابل». شباب اليسار كان ينسج هتافاته تحت منصته الشهيرة، بجوار مسجد عمر مكرم، وهناك صكّ الهتاف الشهير: «يا شهيد نام وارتاح، وإحنا نكمل الكفاح».

مع مطلع شباط (فبراير)، تحوّل فاروق، شعبنا منّك بقى مخنوق».

قامت الثورة فعلاً! كانت النخبة تتوقع أن تضمّ التظاهرات ألفين أو ثلاثة آلاف، ويُقبض على بعضهم، و«كلّه يروح بيته». كان الجميع مندهشاً من ضخامة الحشد في التحرير. الساعة تقترب من الرابعة عصراً، والميدان محاصر بمئات العربات المدرّعة. الهتافات القديمة هي هي: «ارفع ارفع في الأسعار، بكره الدنيا تولّع نار»، و«يا حاكمنا بالمباحث، كلّ الشعب بظلمك حاسس»، و«يا حاكمنا من عابدين، ليلتك زفت وزيّ الطين».

دقائق هادئة. الثوار يسلمون بعضهم على بعض. أنباء عن اقتحام وشيك لقوات الأمن. كان شباب الألتراس (مشجّعو الفرق الرياضيّة)، بشماريخهم وطبلاتهم المتميزة، أول من هتفوا: «الشعب يريد إسقاط النظام». الهتاف أخّاذ، والتأثير

«ميدان التحرير» إلى ورشة كبيرة لآلاف الشعارات الورقية والصوتية، واللافتات، والنكات الساخرة ضد مبارك ونظامه. حتّى إنّ أطفال المدارس نسجوا شعار «الاستقلال التام أو الموت الزؤام». وحين رفض مبارك في خطابه الثالث التنحّي، توجّه الثوّار إلى قصر العروبة صارخين: «ع القصر رايحين. شهداء بالملايين».

الذكرى الأولى للثورة، موعد مناسب لتزييت ماكينات الشعارات. جهّز النشطاء بالفعل بعض الهتافات: «أنا لا يساري ولا يميني، بس العسكر طلّع ديني»، و«اضرب نار، اضرب حي، يا طنطاوي دورك جي». البرد القارس الذي يلفّ المحروسة الآن، لم يقف في وجه ثوّار التحرير. لقد ابتدعوا له هتافاً أيضاً: «ما سقعناش ما سقعناش. الحرية مُش ببلاش».